روضة الحكايات!!
(١٤)

في كِتَاب واحد (٤٠٠٠) ترجمة!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

أنا لها... أنا لها!!

دار نقاش جادٌّ في مكتب مديرِ المعهد ، وذلك حول : من سيُلقي محاضرةَ الأسبوع القادم ؟

واعتذر غالبيةُ الشباب ، وذلك بحجّةٍ واحدة ، ملخّصها : كيف سنتحدّث في المعهد بعد أن استمع الناسُ يوم البارحة إلىٰ المحاضرةِ القيّمة عن حياة الإمام السيوطي ، والتي ألقاها أستاذ مادة التاريخ ؟!

لكنّ الذي حَسَمَ النقاشَ والجدلَ وقوفُ الشاب (منير) واستئذانُه من المدير بالكلام ، ولما أذن له ، قال : صحيحٌ أني لستُ أهلاً لمهمة إلقاء المحاضرات ، وخاصة بين يدي أساتذتنا

وعلمائنا ، لكني أعتقدُ أنه لا مستحيلَ في هذا الوجود ، فكلُّ فردٍ منّا قد وهبه اللهُ تعالىٰ طاقاتٍ عقليةً رائعة ، لكن المشكلة أن هناك من يُهمل ذلك كلَّه ، أو يجمّده ، أو يحوّله عن مَسارِه الحقيقي ، فيضيع الإنسان في متاهاتٍ لا أوّل لها ولا آخر!!

والقلّة القليلة هم الذين يستغلّون ما وهبهُ الله لهم ، فيسخّرونه للفائدة الخاصة والعامة ، إلىٰ درجة أنهم يتحوّلون إلىٰ خيرية كاملة وخالصة ، فيصبح الواحدُ منهم كالشمس ، بحيث تَسطعُ علىٰ البرِّ وعلىٰ الفاجر ، أو كالينبوع المتدّفق ، بحيث يسقي الأرضَ العطشىٰ ، وغير العطشىٰ... ، وهذا ملخّص الحكمة التي جرت علىٰ لسان أحدِ الحكماء ، وذلك أثناء وصيةٍ قالها لأولاده : (يا بنيّ! كونوا للناس كالشجر ، يرميهم الناس بالحجر ، فترميهم بالثمر!!) .

... صفّق مديرُ المعهد... وقال : أحسنتَ

يا مُنيرُ ، وجزاك الله كل خير... وأحبُّ أن أُضيفَ شيئاً ، وملخّصه :

أن علىٰ الإنسان أن يبقىٰ منفتحاً علىٰ الآخرين ، حتىٰ لو آذاه الناس ، أو عذّبوه ، أو حاولوا إسقاطَ مواقعِه ، أو توجيهَ التّهمِ إليه... ، وليوقنْ أنّ كلامَ الناس لا يقدّم ولا يؤخّر ، ما دامت علاقةُ الإنسان طيّبةً مع الله ، فليكنْ ما كان ، ورَحِمَ اللهُ الشاعرَ حينما قال ـ وهو يناجي ربه ـ :

فليتكَ تحلو والحياةُ مريرةٌ
وليتَكَ ترضىٰ والأنامُ غِضابُ
وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ
وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صحَّ منك الودّ فالكلّ هيّنٌ
وكل الذي فوق التراب ترابُ

وقدوتُنا في مسيرة هذه الحياةِ هي سيرةُ سيّدِ

الأنام عليه الصلاة والسلام ، فقد آذاه قومه ـ بل أقربُ الناس إليه ـ وعذّبوه... وقتلوا بعضَ أصحابه.. وحاصروهم في شعب أبي طالب ، وشنّوا ضدَّهم الحروبَ والمعارك ، وأشاعوا ضدَّ الرسولِ صلوات الله عليه الإشاعاتِ والأباطيل و...!!

ومع كل ذلك كان رسولُ الله ﷺ يرفع كفَّيه إلىٰ أرحمِ الراحمين : ويقول : « اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » .

مما جعل جبريل عليه السلام يقول له : (صَدَقَ من سمّاك الرؤوف الرحيم يا محمد) .

... قال (منير) : سأنتظر يوماً آخر ، فإنْ تقدّم أحدٌ بطلب الموافقة علىٰ إلقاء محاضرة... فله حقّ الأفضلية.. وإلا ، إنْ لم يتقدّم أحدٌ.. فأنا لها ، وسأحدثكم عن أحد علماء هذه الأمة المباركة ،

الذين سهروا الليالي ، وزهدوا في كل ما له علاقة بالدنيا ، ولم يقطعوا أوقاتَهم دُونَ فائدة ، إنما انفتحوا علىٰ كلِّ ما هو مفيد ، فأخذوا منه إيجابياته ، وتركوا كلَّ سلبياته ، فاستفادوا وأفادوا... ، إنه الحافظ الذهبي رحمه الله تعالىٰ .

* * *

من مفاخر علمائنا

ومضىٰ يوم.. وآخر ، ولم يتقدّم أحدٌ للتسجيل في المعهد ، وذلك فيما يتعلّقُ بإلقاء المحاضرة القادمة ، مما اضطرَّ المدير إلىٰ استدعاء الشاب (منير)...

وبعد مشاورات ، تمّ الاتفاقُ علىٰ أن يُحدّد موعدَ المحاضرة ، وذلك في مساء يوم الأربعاء ، وتحت عنوان : الذهبي أحدُ مَفاخِرِ التاريخ .

... ودار الزمنُ دورتَه ، وجاء يوم الأربعاء... وبعد صلاةِ المغرب احتشدتِ الجماهيرُ في قاعة المعهد.. وراحتْ تنتظرُ قدومَ الشابِّ المحاضر...

بينما كان (منير) يصلّي ركعتين علىٰ نيّة التوفيقِ والسّداد ، دخلت والدتُه إلىٰ غرفته ، فلما

رأتْهُ بين يدي الله... دمعت عيناها... ثم رفعت كفَّيها إلىٰ الله وقالت : يا رب! أسألك بأسمائك الحسنىٰ... وبإسمِك الأعظم ألا تُدْخِلَ الخوفَ والرهبة إلىٰ قلب ولدي (منير) ، وأن تُثبّتَ فؤادَه ، وتُطلق لسانَه... وتُجريَ الخير علىٰ يديه...

... وبعد قليل توجّه (منير) مع والدته نحو المعهد... وفي الطريق نظرتِ الوالدةُ إلىٰ ولدها وقالت : أراك تَسيرُ بكل ثقةٍ واطمئنان...

فابتسم (منير) وقال : واثق الخطوة يمشي مَلكاً!!

... ولما دخلا قاعة المحاضرات... صعد (منير) المنصّة ، بينما جلست أمه إلىٰ جِوارِ جاراتها... ، وبعد الحمدِ والتسليم والصلاةِ علىٰ النبي صلوات الله عليه قال (منير) : أيها الأحبابُ الكرام!

لقد سطّر التاريخ صفحاتٍ خالدةً لكثير من علمائنا الأفذاذ ، وذلك بسبب ما قدّموه من علومٍ وحكمٍ وأعمال مأثورة...

وحديثنا اليوم عن واحدٍ من أولئكم العمالقة... ، فقد برزَ في مجالاتِ التأريخ والتراجم... والقراءات والحديث ، والسِّيَر والفقه ، والنقد واللغة...

وصنّف كتباً ومجلّدات كثيرة ، زادت عن (٢٧٠) كتاباً ، منها كتابه الفريد العظيم ، واسمه : (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) :

فقد قام الذهبيُّ فحصرَ دراستَه فيه بفترة زمنيةٍ ممتدة من (اهـ) وحتىٰ (٧٠٠هـ) وتحدّث عن الحوادث الرئيسية في تلك الفترة ، إضافة إلىٰ تراجم المشهورين بحيث شمل جميعَ الفئات ،

وتَرْجَمَ لعددٍ هائل ، فقد زادت ترجماتُه علىٰ (٤٠) ألف ترجمة!! ولذلك عندما نقف أمام رفوفِ المكتبةِ العامة ، وندقّق النظرَ في كتابه هذا ، فنرىٰ أنه مطبوعٌ في أربعين مجلداً ، ندرك تماماً تلك الهمّةَ العالية التي امتاز بها (الذهبي).. وحَجْمَ التضحيات التي قدَّمَها للوصول إلىٰ أهدافه..

... ولذلك وَرَدَ في ترجمةِ حياته أنه اعتكفَ قرابة نصفِ قرنٍ... قضاه في التحقيق والتخريج ، والانتقاء والاستدراك ، والكتابةِ والتأليف... حتىٰ عمي في آخر حياتِه رحمه الله تعالىٰ .

وتمتاز مصنفاتُه بالأمانةِ والتوثيق والشمول ، كما تظهر شخصيتُه خلال تصنيفه فهو لا ينقلُ لمجرّد النقلِ ، بل ينتقي انتقاءَ المتخصّص ، وينقّح ويُكمل النقص ، ويخرّج الأحاديث ، ولذلك امتازت مصنفاته بحسن الأسلوب ، والنفع العميم .

وهذا هو السببُ الذي جَعَلَ العلماءَ الكبار يقدمون علىٰ الاستفادةِ من مصنفاتِه ، وينهلون من معينها ، ويُثنون علىٰ أسلوبه... ويوصي بعضُهم بعضاً بضرورة الاستفادة منها ، مثال ذلك ما قاله العلامة الشوكاني :

(وجميع مؤلفاته ـ يقصد الذهبي ـ مقبولة مرغوب فيها ، رَحَلَ الناسُ لأجلها ، و أخذوها عنه ، وتداولوها ، وقرؤوها ، وكتبوها في حياتِه ، وطارتْ في جميع بِقاعِ الأرض ، وله فيها تعبيراتٌ رائعة ، وألفاظٌ رشيقة غالباً ، لم يسلك مسلكه فيها أهل عصره ولا من قبلهم ، ولا من بعدهم) .

* * *

العلم... والعمل...

تابع (منير) حكايته عن الإمام الذهبي قائلاً :

وكان (الذهبي) من حملة لواء العودة إلىٰ الفطرةِ السليمةِ ، والحنيفيةِ السَّمْحةِ ، والبُعد عن التعصّبات المَقيتةِ ، والتشنُّجاتِ والتعسيرِ علىٰ النـاس ، وذلـك لـن يكـون إلا إذا عـاد الأفـرادُ والمجتمعات إلىٰ ما جاء في القرآن والسنّة .

إضافة إلىٰ معرفة أن الصّدق في النوايا أثناء العمل... والتركيزَ علىٰ الإخلاصِ لله هو أساسُ القَبولِ والتوفيق .

لذلك جاء في نصائِحه لمن حوله :

(... فعليك يا أخي بتدبّرِ كتابِ الله ، وبإدمان

النظر في (الصحيحين) ، وسنن النسائي ، ورياض النواوي وأذكاره ، تُفلح ، وتنجح ، وإياك وآراءَ عُبَّاد الفلاسفة ، ووظائفَ أهل الرياضات ، وجوعَ الرهبان ، وخطابَ طَيْش رؤوس أصحاب الخلوات ، فكلّ الخير في متابعةِ الحنيفية السَّمحة ، فواغوثاه بالله ، اللهم اهدِنا إلىٰ صراطك المستقيم) .

ومن أروعِ وأكملِ روحانياته ، التركيز علىٰ حبّ الرسولِ صلواتُ الله عليه... والتتبّعُ لكل ما ورد عنه ، والاقتداءُ والتأسّي بما جاء عنه...

* * *

فمن هو الإمام الذهبي ؟!

ثم أجال (منير) النظرَ في الحاضرين ، وقال : فهل عرفتُم من هو الإمام الذهبي ؟!

في قرية (كفربطنا) من قرىٰ غوطة دمشق الشرقية ، وفي سنة (٦٧٣هـ) وُلد الإمام ونشأ وترعرع في عائلة متدينة متعبّدة ، فحصّل الآداب.. والأخلاق.. والعلم...

وفي دمشق تتلمذ علىٰ أيدي كبارِ العلماء ، أمثال (ابن عساكر)... وفي رحلاته العلمية ـ إلىٰ مصر.. وفلسطين.. وبلاد الحجاز.. ولبنان ـ استفاد وأفاد.. ، وفي مناظرته مع علماء زمانه (كالسبكي وابن قيّم الجوزية وابن سيّد الناس...) كان له دورٌ في التركيز علىٰ خدمةِ الحركةِ العلمية في البلاد الإسلامية... .

ولم يتوقفْ جهادُ الكلمةِ في حياة الإمام الذهبي... ، حتىٰ إذا ما قارب الأجل ، أنشد :

تـولّـىٰ شبـابـي كـأنْ لـم يكـنْ
وأقبـلَ شيـبٌ علينـا تـولَّـىٰ
ومـنْ عـايـنَ المنحنـىٰ والنَّقـىٰ
فمـا بعـدَ هـذيـنِ إلا المصلّـىٰ!!

وفي ليلة الإثنين سنة (٧٤٨هـ) أسلمَ الروحَ إلىٰ بارئها... فصلّىٰ الناسُ عليه.. ودُفن بمقبرةِ البـاب الصغيـر بـدمشـق... ، فعليـه مـن اللهِ الرحمات... ونسألُ اللهَ أن ينفعَنا بعلومه.. آمين.. والحمد لله رب العالمين .

* * *